

الدراسات العليا: بين الطموح والتضحية

بقلم: بيظلي بن حسين العامري

طالب بمرحلة الدكتوراه (المناهج وطرق تدريس اللغة العربية)

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على معلم البشرية الخير، وعلى آله وصحبه، ومن سلك سبيله ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد.

فإذا كنت تقرأ هذه الكلمات؛ فأنت أحد النخبة المتميزين، ليس على مستوى المملكة العربية السعودية، ولا المستوى العربي فحسب، بل على مستوى العالم، حيث أتيت لك فرصة مواصلة التعلّم، والالتحاق بالدراسات العليا ضمن برامج الماجستير والدكتوراه. وأنت تقرأ هذه السطور فإنّك قد اتخذت قرارًا مهمًا في حياتك، وقد سرت في طريق عدم العودة. طريق طويل يبتعد بك عن الإجابات المتسرعة، عن القول دون تثبت، عن الهدر في الوقت والجهد، طريق يسير بك نحو استثمار أكبر قدر ممكن من وقتك وجهدك وطاقتك، لتحقيق أهدافك السامية.

وبالعودة إليك؛ فإنّك وأنت تقرأ هذه الكلمات، تكون بالفعل ضمن النخبة المتميزة الذين وقع الاختيار عليهم للدراسة في واحدة من أعرق جامعات المملكة العربية السعودية، بل والوطن العربي؛ وهي جامعة أم القرى، حيث شرف المكان وشرف العلم.، وفي كلية تعدّ أم كليات التربية في المملكة العربية السعودية، وفي قسم المناهج وطرق التدريس، درّة التاج لكلية التربية، حيث يسير هذا القسم وفق أدق النظم الإدارية، ويراعي أعلى معايير ومتطلبات الجودة في التعليم الجامعي بعامة، وبرامج الدراسات العليا على وجه الخصوص. كما يضم بين جنباته كوكبة من أعضاء هيئة التدريس؛ الذين يعدّون نخبة أساتذة الجامعات، نظير تميزهم في تخصصهم، بل يكاد بعضهم يشكل مدرسة مستقلة في تخصصه. بالإضافة إلى ما يتميز به هذا القسم من تقديم كافة البرامج التخصصية في المناهج وطرق التدريس، وهو الأمر الذي يتميز به عن بقية الأقسام على مستوى المملكة العربية السعودية، وهذا ما يجعل هذا القسم موردًا عذبًا كثير الزحام، ويجعل من دراسة البرنامج فيه ملتقى علميًا متجددًا لطلاب الدراسات العليا في المناهج وطرق التدريس، على امتداد الوطن وباختلاف التخصص، بحيث تسمح الدراسة فيه بالالتقاء مع زملاء الدراسة والتخصص، على مستوى التعليم الجامعي أو العام. وعليه فإنّك - والحالة هذه - بلا شك أمام فرصة عظيمة من جهة، ومن جهة أخرى أنت أمام تحدٍ كبير مع الذات، ولديك رهان مع الوقت، وسباق مع الزمن؛ الأمر الذي يفرض عليك التزود بالعديد من المعارف بل والمساهمة في إعادة تدوير المعرفة وإنتاجها، واكتساب وصقل المهارات وبخاصة مهارات البحث العلمي، وتكوين

الاتجاهات الإيجابية نحو العلم والتعلم، والبحث العلمي، وتقبل الاختلاف في وجهات النظر. كما أنك مطالب أكثر من غيرك في التفكير بنمط ناقد وإبداعي؛ نحو الواقع، وتقديم أفضل الحلول التي تيسر عمليتي التعليم والتعلم.

وإذا كان الإنسان يسعى في رحلة الحياة إلى الإجابة عن كثير من الأسئلة التي تنشأ مع ولادته، وتنمو بنموه، وتزداد تعقّدًا وعموضًا وصعوبة مع تعقد حياته وتشعبها، وزيادة حجم المشكلات والمواقف التي يواجهها، فإنّ طالب الدراسات العليا - أنت - يحرص على السؤال حرصه على الإجابة، ويتعلم متى ولماذا وكيف يسأل. ويستمر بطرح الأسئلة التي يصل منها إلى إجابات مقبولة، ومحتملة ومنطقية، ويملك مع ذلك الأدوات والمهارات اللازمة التي تمكنه من التأكد من صحة وموثوقية الإجابات التي حصل عليها، أو بشكل علمي أدقّ التقليل من خطئها. وإذا أردت أن تضاعف قدراتك العقلية لتتمكن من التفكير السليم في الأمور، وأيضًا تستطيع حل المشكلات، فلا بد أن تتعلم التفكير في الأمر الواحد بطرق متنوعة؛ حتى تتأمله من جهات مختلفة، فتستطيع تربيته بشكل يمكنك من استيعابه، وتوظيفه بما يفيدك ومجتمعك، وهذه النظرة للأمر؛ يجب أن يكون معها أفق متسع يسمح بالاختلاف في وجهات النظر مع الآخرين. وإذا جاز لنا التعبير فإنّه يمكن القول: إنّ مرحلة الدراسات العليا هي مرحلة (تعلّم فن طرح الأسئلة).

وإنّ طالب الدراسات العليا حين يتخذ قراره بمواصلة رحلة البحث والتعلم، يكون قد حكم على نفسه وأسرته بكثير من الضغوط، واستعد لتقديم الكثير من التضحيات، على المستوى الاقتصادي والصحي والنفسي والأسري والاجتماعي. والملاحظ أنّ الكثير مالم يكن كل طلاب الدراسات العليا يشكون من الضغط وزيادة العبء الذي يقع عليهم طيلة فترة الدراسة، الأمر الذي يصيبهم بالإحباط، ويصبح البعض من الطلاب عرضة للانحزام والتسرب من البرنامج. وهنا يجب تذكر ما قاله الفيلسوف رالف والد أميرسون: "مقابل كل شيء خسرت، كسبت شيئًا آخر، ومقابل كل شيء تكسبه، تخسر شيئًا آخر، إنّ الحياة عبارة عن سلسلة من المقايضات"

وكما قال المتنبي: دون الحلاوة في الزّمان مرارة لا تُحْتَطَى إلا على أهواله

فلا يمكن أن تتوقع نجاحًا بدون قدر من التضحيات، ففي أي وقت ترى فيه نجاحًا ثق بأنّ هناك من قدّم التضحيات، فإذا كانت أهدافك عظيمة، وهذا ما يظهر من قرارك بمواصلة الدراسة والتعلم؛ فلا تصدق أي شخص يقول لك: إنّ هناك طرقًا سهلة أو مختصرة للوصول إليها.

وقد قال المتنبي: إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمرّ به الوحوّل

وإنَّ الفرصة التي أتاحت لمن يواصلون الدراسات العليا، على الرغم من تنافس الآلاف عليها على مستوى الوطن، تضع طالب الدراسات العليا أمام مسؤولية كبيرة، وتحتم عليه الاجتهاد في العمل، والتواضع في التعامل، وتمثّل القدوة في الإنجاز والتواصل على النطاق العملي والمجتمعي؛ فهو ليس كغيره. إنَّ طالب الدراسات العليا باحث يحمل نظرة ثاقبة وأدوات فاحصة، وقدرة على الشعور بمشكلات الحاضر، وبصيرة للاستشراف والتنبؤ بمشكلات المستقبل، الأمر الذي يمكنه من الإسهام بفاعلية في حل مشكلات المجتمع، وبخاصة على الصعيد التعليمي والتربوي، ضمن رؤية بحثية متطورة، وتنمية معرفية مستدامة، تركز على الاقتصاد المعرفي في أعمق وأدق صوره. وهذا يعدّ أحد العوامل المساعدة في تحقيق رؤية المملكة (٢٠٣٠)، بحيث نسهم في رؤية وطن، وتشكيل حلم، ونسير بجمّة نحو القمة؛ لتصبح نيوم مدينة الحالمين، ليست مجرد مدينة، بل فكرة سعودية بامتياز، تراود عقل ومخيلة، كل من يحلم بالتطور والازدهار.

وفي الختام؛ فإن رحلة طالب العلم تبتدئ بالنية الصالحة، وتنتهي بتعليم الناس، وهذا كما قال ابن المبارك: "أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر". وهذا يعني أنّ رحلة التعلم والتعليم لن تنتهي عند إتمام البرنامج، بل ستصبح حينها أعمق أثرًا وأكثر فاعلية.

وإلى أن نلتقي وقد تحقق الحلم، ونلت الدرجة العلمية المنشودة، في الماجستير أو الدكتوراه؛ واصل تعلّم فن الأسئلة.